ملخص الدراسة

تحاول هذه الدراسة تقديم مساهمة في نقد الخطاب القومي العربي، عبر مناقشة أربعة نماذج من دعاته في القرن العشرين، فتتناول من الجيل الأول محمد عزة دروزة، ومن الجيل الثاني نديم البيطار وقسطنطين زريق، ومن الجيل الثالث عزمي بشارة، لتحاول بعد ذلك التشبيك بينهم منطلقة من مقولة "الصيرورة الثقافية للفكر"، لفهم تطوّر الخطاب القومي العربي.

ولم تعبأ فصول هذا المبحث باستخراج الآثار الغربية في تشكيل النموذج القومي لكل داعٍ من دعاةِ القومية الأربعة، أي أنها لم تتعامل مع الخطاب القومي العربي على أنه فرعٌ من أصل. بل اعتبرت النتاج القومي هو الأصل الذي يعبِّرُ عن جدلٍ مع مشكلات الواقع العربي. وما كان استبدال هذا الخطاب لنظريات وطرائق إلا في سياق صيرورة ثقافية تسعى جاهدة إلى مواكبة تعقدات الواقع.

وتخلص الدراسة إلى تحقيبِ الخطاب القومي العربي إلى ثلاث مراحل. أولاها: مرحلة الما–صدق، حين استخدم القوميون العرب خطاب المقوّمات، لتكشف من خلال تحليل كتابات محمد عزة دروزة، أن داعي القومية العربية الذي حمل شذراتٍ عنصرية في تصوره للقومية العربية، اشتغل من باب التحصيل الحاصل في التراث، وانتبه منذ وقتٍ مبكرٍ إلى ضرورة أن يعيد مفهمة الإسلام وتاريخه قومياً.

هذا يعني أن قطاعاً من الجيل الأول من القوميين العرب، لم يغفل عن ضرورة توظيف التراث في المشروع النهضوي العربي، إلا أنَّ ضغط الآخر/الاستعمار أدى فيما أدى إلى إعاقة الفهم الموضوعي لمعناه. وربما كان أحد أسباب ذلك الصورة التي قدّمها المستعمر عن نفسه، وتناولها المثقف القومي بغير تأنٍ، لينسج على مثالها صورته.

ولو أنَّ الجيل الثاني من القوميين العرب تابعوا الجهد التأصيلي لهذا الاتجاه، لما نجم عن ذلك فراغٌ قام بسدّه الإسلام السياسي. ولكنَّ اللاحقين كما يتبيَّنُ من خلال تحليل كلٍ من إنتاجات نديم البيطار وقسطنطين زريق، وهما داعيان للقومية العربية من الجيل الثاني، انزلقوا إلى خطاب العلموية.

في هذه المرحلة، انتبه رواد القومية إلى ضرورة إعادة ترتيب طروحات الفكر القومي العربي، والتخلص من الجوانب الرومانسية التي تتخلله، وباختصار أدرك أولئك الطبيعة الأيديولوجية للفكرة القومية، فذهبوا إلى صبغها وتعديلها وإعطاءها صفة العلمية، لينظّروا إلى ضرورة الاستفادة من المنجزات المعرفية الحديثة التي حققتها الدراسات التاريخية والسوسيولوجية.

وقد رصدت الدراسة الأزمة التي وقع بها الجيل الثاني حينما تبنوا الخطاب العلموي، فقد انحبس اتجاهٌ منهم يمثله نديم البيطار في المنهج السايكروني، أو جدلية الجوهر بالتعبير الهيغلي، فشيّد تصوره للأيديولوجية القومية بناءً على ضرورة تحليل

الانتقالات التاريخية من مجتمع مجزأ إلى آخرٍ موَّحد. أي فحص القوانين والآليات الاجتماعية التي تحقق حالة الوحدة، ومعاينتها وإدراكها كبنيةٍ تحمل مقوماتها داخلها.

وإذا كان البيطار قد ذهب إلى الحدّ الأيديولوجي الأقصى من العلموية القومية، إذا صحَّ التعبير، فإن قسطنطين زريق ممثلاً للاتجاه الثاني، ذهب إلى نقيضه، باسم التاريخانية، ليردَّ القومية العربية إلى دائرة الأخلاق لا دائرة السياسة، وليحصرها في الحيز الخاص، ويقصيها عن الحيز العام. وهو أمرٌ مرده مماثلته لها بالتدين بمفهومه الذي ينتمي إلى عصر التنوير.

ولم تكن هذه النقلة لتجري لولا أن زريق استبدل الدعوة القومية، بدعوة أخرى للتحديث، واقتباس الأساليب الحديثة في "تطويع واستغلال الموارد والإنتاج والتنظيم، وعلى اللحاق بركب الشعوب المتقدمة تقنياً وعلمياً"، فالآلة برأيه هي ربّ المجتمع، هي التي تحركه وتضمن له الحرية والاستقلال. لقد كان زريق منظراً للأداتية بامتياز.

وإذا كان نديم البيطار قد غادر نهائياً المجال السياسي ووسم الواقع العربي بسمة المنافي، انتصاراً لفكرة القومية العربية، فإن زريق غادر فكرة القومية العربية انتصاراً للتحديث، دون أن يدرك بأنه أحد تجليات التشيؤ في المجتمعات الغربية الحديثة كما وضح ذلك فلاسفة مدرسة فرانكفورت النقدية. ولأنه صال وجال في الغرب، وأظهر انبهاراً واضحاً بالقدرة التقنية للغرب الرأسمالي، فإنه ابتلع خطاب الأيديولوجية الحداثوية الأوروبية، دون أن يدرك متلازمة الاستعمار في تركيبها. أي أنه وقع في فخِّ المنهج الدايكروني، أو جدلية الوجود بالتعبير الهيغلي.

وفي المرحلة المعاصرة؛ مرحلة التجديد، من الصيرورة الثقافية للقومية العربية، يتجاوز عزمي بشارة من الجيل الثالث من دعاة القومية العربية، ليجبر بشارة الخلل الذي وقع به سابقوه، فيعيد الاعتبار لرومانسية المعرفة؛ الرومانسية الواقعية ليتغلب على دعوات الواقعية التجزئية التي تمارس سياسات هوية طائفية وعشائرية. حيث الرومانسية ضرورية لعملية التخيل. التخيل بوصفه مشروعاً سياسياً، وبوصفه ملجأً حيوياً وردة فعل لمقاومة المركز الإمبراطوري فحسب، بَلَهُ نهجٌ بديلٌ ضد المركزة الغربية.

ينتقل مفهوم القومية من كونه غاية أو أداة عند المفكرين السابقين، ليصبح عند عزمي بشارة كصيرورة. وعندما يصبح كذلك، لا يصبح بالإمكان النظر إليه إلا بوصفه مركباً من مركبات الحداثة لا يجوز فصله عن مركبات أخرى حسمت جدلية جوهرها كالديمقراطية. إذاً فالقومية العربية صيرورة، والديمقراطية صيرورة أخرى، والحداثة هي الصيرورة الكبرى التي تتفاعل فيها مركباتها تفاعلاً يفضي إلى "مجتمع مدني نحو الداخل وأمة نحو الخارج". والحال أن هذا التجاوز لم يكن ليتحقق، لولا مجادلة بشارة بين جدلية الجوهر وجدلية الوجود لتتحصل جدلية الجدليتين، التي تفسح المجال لاستعادة الرومانسية التي تمَّ تطليقها في المرحلة العلموية، وتستوعبها بل وتجدها ضرورية ضمن عملية التخيل.

ويؤدي التشديد على العلموية، وتجنب قراءة "الشعور" و"الخيال"، كمقولتين علميتين، إلى انفصال الأيديولوجية عن الممارسة، وانسلاخ المثقف عن الطبقات الاجتماعية، وبالتالي الانزلاق إلى النخبوية. لذا كان على داعي القومية في مرحلة التجديد القومي أن يلاحق وسائل التخيل، حيث يتخيل الناس أنفسهم كجماعة سياسية تعبّر عن نفسها كأمة.